العنوان:	خطاب الحب في طوق الحمامة البن حزم الأندلسي
المصدر:	آداب القيروان
الناشر:	جامعة القيروان - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي:	شعرانه، المنصف
المجلد/العدد:	ع14
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2022
الشهر:	أكتوبر
الصفحات:	203 - 216
رقم MD:	1289908
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الأندلسي، ابن حزم، ت. 456 هـ.، الخطاب السردي، الأدب الاندلسي، الخطاب الحب
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1289908

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

شعرانه، المنصف. (2022). خطاب الحب في طوق الحمامة البن حزم الأندلسي. آداب القيروان، ع14، 203 - 216. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1289908

إسلوب MLA

شعرانه، المنصف. "خطاب الحب في طوق الحمامة البن حزم الأندلسي."آداب القيروانع14 (2022): 203 - 216. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1289908

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

خطاب الحبّ في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي

منصف شعرانة،
كلية المجتمع خميس مشيط جامعة الملك خالد،
المملكة العربية السعودية

من المؤلفات التي لا تبلى مع الدّهر كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاّف[1] لابن حزم الأندلسي ت 456هـ/ 1064م وقد ملأ الدنيا وشغل الناس وحاز به صاحبه شهرة كبرى على جليل كتاباته الأخرى في الأصول[2] والكلام[3] والمنطق[4] والفقه[5] ولعلّ اللافت للانتباه في هذا المجال صورة ابن حزم الفقيه الملتزم بالدّفاع عن المذهب الظاهري وهو المنظر له في بلاد الأندلس والمناضل من أجله في بلاد الغرب الإسلامي وصورة الأديب المنظر للحب.

إنّ الجمع بين التصنيف في الفقه وأصوله والتأليف في الحب وفنونه كان من أسباب شيوع الكتاب وانتشاره بين الناس شرقا وغربا وسنسعى من

[1] اعتمدنا النسخة الصادرة عن الدراسة التونسية للنشر ، تحقيق وتقديم صلاح الدين القاسمي تونس ، 1986 ، وهي نسخة علمية تستجيب لشروط التحقيق العلمي .
[2] انظر في ذلك كتابه : الإحكام في أصول الأحكام ، نشر أحمد شاكر ، القاهرة (ت .د) .
[3] انظر في ذلك كتابه : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، بيروت ، 1975 .
[4] انظر في ذلك كتابه : التقريب لحد المنطق ، نشر إحسان عبّاس ، بيروت ، 1959 .
[5] انظر في ذلك كتابه : المحلّي ، نشر أحمد شاكر (8 مجلّدات) ، بيروت (د ت) .

خلال هذه الدراسة إلى تحليل بنية خطاب الحب في طوق الحمامة من خلال دراســة مكوّناته ووظائفه ودلالاته والكشف عن الطّارف فيه والتّالد في خضم الدراسات الغزيرة التي تناولت رسالة طـوق الحمامة بالدّرس والتي غلب عليها التأريخ والبحث عن الوثائقي فيها من خلال ربطها ربطا آليا بسيرة الكاتب وصورة العصر[6].

ا - مكوّنات الخطاب

1 - المكوّن السردي:

لقد بات مسلّما به اليوم أن السّردية سمة خارقة للأنساق الدّالة سواء كانت خبرا أو رسالة أو خرافة أو قصّة أو غير ذلك من سائر المرويّات وأنّ المقولة السرديّة هي النواة التي يمكنها أن تجمع كل صنوف كتابات السيرةالذاتية على تنوّعها[7].

ويتنزل كتاب طوق الحمامة في باب الخبر فنّا من فنون السرد.

وأول مظاهر هذا الفنّ المتن والإسناد فقد سعى ابن حزم إلى تأصيل أخباره في الحب من خلال اللجوء إلى الإسناد إلى جملة من الرّواة العلماء والفقهاء ومن عاصرهم من أهل العلم الذين أوردوا أخبارا عن الحبّ وفي المحبّ، علما بأنّ من وظائف الإسناد الإيهام بالحقيقة.

---

[6] نذكر من بين هذه الدراسات على سبيل المثال :
– أحمد أمين/ ظهر الإسلام ج3 . ط 10 ، بيروت (د .ت) . ص212
– الطاهر أحمد مكي : دراسات عن ابن حزم وكتابه : طوق الحمامة ، ط3 ، دار المعارف ، مصر ، 1981 ، ص232 .
– محمد طه الحاجري : ابن حزم صورة أندلسية ، بيروت ، 1982 ، ص 1952 .
– جودة مدلج : الحب في الأندلس ، ط1 ، بيروت ، 1985 ، ص264
– جفّد لويس أنيتا : نظرية العشق عند العرب : دراسة تاريخية ، نزعة نجم عبد الله مصطفى ، سوسة ، تونس ، دار المعارف ،(د ت) ، ص38–39 .

[7] جليلة طريطر : مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث مركز النشر الجامعي سوسة ، سعيدان للنشر ، 2004 ، ص 15 .

وللراوي دور كبير في نقل هذه الأخبار، والراوي هو الكاتب نفسه ابن حزم الأندلسي الذي سمع عن أخبار الحب وأسراره الشيء الكثير ويعدّ شرطا أساسيا من شروط الكتابة عن الحب: يقول ابن حزم في ذلك «والذي كلّفتني به لا بدّ من ذكر ما شاهدته حضرتي وأدركته عنايتي وحدّثتني عنه الثقات من أهل زمانه..»[8].

ويلحّ ابن حزم على صدق تجربته في الحبّ متجنبا أخبار الأعراب والقصّاص الذين انتحلوا أخبار المحبين وضاقت بمرويّاتهم كتب الأدب والأشعار والموسوعات الأدبية، وهو ما يؤكد قوله: «والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدّك والاقتصار على ما رأيت أو صحّ عندي بنقل الثقات، ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت الأخبار عنهم وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ولا أتحلّى بحلي مستعار»[9].

وقد عاش ابن حزم الأندلسي تجربة الحب وأوابتلي بها يقول: «وإني لأخبرك عنّي أنّي ألفت في أيام صباي ألفة المحبة جارية نشأت في دارنا»[10]..

وهو ما يجرّنا إلى الحديث عن حضور الراوي الكاتب ابن حزم الاندلسي مما يجعل الحديث ضربا من التجربة الذاتية فقد نبّه الكاتب في الكثير من الأحيان إلى أنه ينقل أخبارا عاشها وهو ما يعتبر ضربا من العقد أو الميثاق القرائي «ولم يعد بخاف أن فيليب لوجون Philippe Lejeune كان أول من أخضع الدرس النقدي بداية من منجزه التنظيري المتعلق بالسيرة الذاتية لمقولة التعاقد القرائيّة التي وقع تعميمها لاحقا على المتخيل الروائي»[11].

---

[8] ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة ، ص43 .

[9] ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة ، ص 44 .

[10] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص205 .

[11] جليلة طريطر : المرجعي في المتخيّل الروائي «إفلاس» ، للبشير خريّف ، الحياة الثقافية ، السنة 43 ، العدد 284 ، جانفي 2018 ، ص 49 .

ومعلوم ما للأنا الكاتب الراوي من أهمية باعتباره ينقل تجربة فريدة عن ذاته، ويعد جون جاك روسو J.J.Rousseau مؤلف Les confissions الاعترافات (1772-1778) مؤسس جنس السيرة الذاتية الحديث ومن ثم المجسم الأول له على اعتبار الأنا هو الموطن الكفيل بالكشف عن فرادته وباختلافه عن الآخرو اختلاف الآخر عنه[12].

ورغم إغراق البنيويين في التجريد الوصفي فإن جلّ الاتجاهات البنيوية لم تقل بإلغاء مقولة الشخصية إلغاء نهائيّا أو مطلقا لأنّ الشخصية ضرورة حتمية في بناء المنظومة السرديّة لذلك نرى ابن حزم الأندلسي حاضرا في كل خبر وفي كل تجربة من تجارب الحب والعشق وهو ما وعد به الصديق الذي كلّفه بالكتابة في الحب وإن كان الصديق هو مجرّد شخص وهمي أو كما يقول عنه رولان بارت «هويّة مجردة»[13]، لأننا لا نملك معلومات عن هذا الشخص لا عن أصله ولا عن فصله فقط هو صديق من مدينة المريّة اسم نكرة لا نسبة له : يقول ابن حزم الأندلسي مبرّرا الكتابة في الحب بدعوة من الصديق الحبيب المجهول: «إنّ كتابك وردني من مدينة المرية إلى سكناي بحضرة شاطبة تذكر فيه من حسن حالك ما يسرّني وحمدت الله عزّ وجل عليه واستدمت لك واستزدته فيك، ثم لم ألبث أن اطلع عليّ شخصك وقصدتني بنفسك على بعد الشقة وتنائي الديار وشحط المزار وطول المسافة وغول الطريق... وكلّفتني أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا متزيّدا ولا مفنّنا»[14].

إننا نذهب إلى أن الكتابة في الحب رغم تعلل ابن حزم بأنها استجابة لرغبة صديق حبيب عزيز عليه فإنها جانب من «البوح والإفضاء بما يجيش في صدر

[12] J. J. Rousseau, Les confessions, le livre premier, Paris, 1995, PP 33-34.

[13] R. Barthes: Introduction à l'analyse structurales des récits, Communication n°8, Paris, 1966, P 16.

[14] ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة ، ص ص 42-43 .

الكاتب من أشواق وآلام على هوى قد هوى ودولة عزّ قد دالت وزمان وصل أضحى عافيا. لذلك تبدو الرسالة من هذا الوجه شكلا من أشكال التنفيس عن نفس ظمأى مكلومة يتأسّى في أحضانها بالذكرى فرارا من الحاضر الموجع المقرون بالهزيمة والتشريد وضياع الوطن والحبيبة»[15].ذلك أن الكتاب قد ألّف في ظلّ صراع الأمراء الولاّة الأندلسيين على الحكم فتمزّقت الأندلس شرّ ممزّق وأصابت عائلة ابن حزم المصائب فنكب والده في الوزارة وعادت العائلة إلى منازلها القديمة ببلاط مغيث بمدينة شاطبة.يقول ابن حزم متمثلا هذه الأوجاع: «فأنت تعلم أنّ ذهني متقلّب وبالي مهصّم مما نحن فيه من نبوّ الديار والجلاء عن الأوطان وتغوّل الزمان ونكبات السلطان وتغيّر الإخوان وفساد الأحزان وتبدل الأيّام... وذهاب المال والجاه»[16] وهو يشير بذلك إلى المحن التي أصابت العائلة من جرّاء الفتنة التي وقعت أيام خلافة المهدي سنة 399هـ وألقت بظلالها على عائلة ابن حزم الأندلسي وتنكر الزمان للوالد الوزير أحمد بن سعيد بعد رجوع هشام المؤيّد إلى العرش سنة 399هـ الموافق لـ 1009م فأعفي من الوزارة وانكمش على نفسه إلى أن توفي سنة 402هـ الموافق لـ 1012م وكان ذلك بعد وفاة ابنه البكر أبي بكر بوباء الطاعون سنة 401هـ / 1011م لذلك نعتبر الرسالة في الحب مجرد تفريج عن النفس المكلومة وقد نزل بابن حزم من المصائب والنكبات ما يدمي الفؤاد لذلك نجد حضور الذات في الرسالة حضورا مكثّفا وهو ما يظهر في كل باب تقريبا عندما ينقل خبرا أو يعلق على حادثة أو يفسر ظاهرة من ظواهر الحب: «ودعني أخبرك أنني أحد من دهي بهذه الداهية (يشير بذلك إلى موت حبيبته نُعْم)[17] ووقع لي مثل هذا[18] ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن[19] وإنّي أخبرك ما

[15] منصف شعرانة : الذات ومسألة الحب في طوق الحمامة ، حوليات الجامعة التونسية ، عدد 42 ، السنة 1992 ، ص245

[16] ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 264 .

[17] نفسه ، ص 175 .

[18] نفسه ، ص 121 .

[19] نفسه 121 .

رويت من ماء الوصل وما زادني إلاّ ظمأ[20] وشيئا أصفه لك تراه عيانا»[21] إنّ مثل هذا التصريح الذي تتراكب فيه ذاتان: ذات الكاتب وذات الرّاوي، ممّا يجعل من الذات الراوية عنصرا من عناصر الخطاب في الحب فضلا عن أنّ الشخصيات التي عاشت مع ابن حزم منها الأمراء ورجال الدولة وبعض الأصدقاء ممن عاشوا تجارب في الحب كانت نتيجتها الوصال أو الفراق.

وممّا يجعل حضور ذات ابن حزم ذا أهمية وبال كونه عاش في قصور الأمراء والوزراء مع النساء الحرائر والمملوكات الوصائف وهو يعترف بذلك قائلا: «ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري لأنّي ربيت في حجورهنّ ولم أعرف غيرهنّ ولا جالست الرجال إلاّ في حد الشباب وحين تفيّل وجهي وهنّ علمنني القرآن ورويّنني كثيرا من الأشعار ودرّبنني على الخطّ»[22].

إنّ إشراف ابن حزم الأندلسي على عالم المرأة مبكّرا يسّر له معرفة أسرارها وما يدور في القصور من حب وغرام وهيام على أنّ خطاب ابن حزم هذا الذي تتداخل فيه عناصر الحقيقة وعناصر الخيال إلى حدّ التماهي أحيانا، ويغتني بواسطته عالم الإيهام الفنّي، إنّما يتغذّى ضمن هذا البعد الأوّل من عالم السّرد الممثّل بجنس الخبر.

2 - المكوّن الشعري:

لا يخلو باب من أبواب طوق الحمامة من الشعر، وهو شعر ابن حزم نفسه، تعليقا على حالة من الحب أو تأكيدا لقيمة من القيم أو إشادة بمناقب أو رفضا لمثالب. والشعر في الكتاب يبدو رديفا للنثر دالاّ شأنه شأن النثر وهو ما عبّر عنه جون كوهن بـ«القصائد الدلالية»[23]. فوجود الشعر، متخلّلا مقاطع النثر، وهي تختلف قصرا وطولا.

---

[20] نفسه ، ص 138 .
[21] نفسه ، ص 227 .
[22] ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة ، ص 121 .
[23] جون كوهن ، اللغة الشعرية ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، المغرب (د . ت) .

مما يسهم على حدّ عبارة باختين «في التنوّع اللغوي»[24] كما جاء في باب علامات الحب وهو يفسّر أمارات الحب وفعلها وتأثيرها في العاشق من ذلك قول ابن حزم [من الطويل]:

فليسَ لعيني عند غيركِ موقفٌ * * * كأنّكِ ما يحكونَ من حجرِ البهْتِ
أُصرّفها حيثُ انصرفتِ وكيفما * * * تقلّبتِ كالمنعوتِ في النحوِ والنعتِ[25]

وهو يصف حالة العين التي تتابع المحبوب وتنتقل بانتقاله كالظل أو كالنجم الثابت في الإبطاء علامة على التعمّد في القعود بقرب المحبوب [من الخفيف]:

وقيامي إن قمتِ كالأنجمِ العا * * * ليةِ الثابتاتِ في الإبطاءِ[26]

أو عندما يعلق على رقيب قد ذاق هو نفسه لوعة الحب وامتحن بالعشق قديما ودهي به ثم انتدب مراقبا فإنّه بلاء ما بعده بلاء وفي ذلك يقول ابن حزم [من الوافر]:

رقيبٌ طالما عرفَ الغراما * * * وقاسى الوجدَ وامتنعَ المناما
ولاقى في الهوى ألماً أليما * * * وكاد الحبُ يُورده الحِماما
فأيّ بليّة صُــبّتْ عــليــنا * * * وأيُّ مصيبة حلّت لِاما[27]

وفي باب الوفاء يشيد ابن حزم الأندلسي بقيمة الوفاء الأخلاقية ويعتبرها من طيب العنصر ومفاخر الأصول ومناقب الحب .يقول [من البسيط]:

أفعال كلّ امرئ تنبي بعنصــره * * * والعينُ تغنيك عن أن تطلب الأثرا
وهل ترى قطُّ دفلى أنبتت عنبا * * * أو تذخرُ النحلُ في أوكارها الصبرا[28]

[24] Bakhtine: Esthétique et théorie du roman, Gallinard, Paris, 1979, P14.
[25] ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ص 57 .
[26] نفسه ، ص58 .
[27] نفسه ، ص125 .
[28] ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة ، ص 161 .

لعله قد اتّضح، من خلال هذه الأمثلة، أنّ الشعر مكوّن أساسي ضمن خطاب الحبّ في طوق الحمامة، وأنّ له وظيفة هامة هي معاضدة السرد بدعم الأخبار وتسويغها لدى القارئ ورفع درجة التأثيرفيها...

3 - المكوّن الحجاجي:

عرّف بيرلمان وتيتكاه الحجاج من منطلقات خاصة هي منطلقات نصوص المرافعات في المحاكم لغاية الدفاع والإقناع إذ بقولهما «والغاية من كل حجاج هي جعل العقول تذعن وتسلم بما يطرح عليها من الأقوال أوأن يزيد في درجة ذلك الإذعان فتقوى لدى السامعين بشكل يبعثهم على عمل المطلوب»[29]. أمّا تولمان فإن تعريفه للحجاج كان بشكل مغاير تماما فقد اعتبر الحجاج بمثابة المسار الذي يسلكه المتقبل بنتيجة ما[30]، ففي الخطاب الحجاجي نتحدّث عن غائية يلتقي فيها البراغماتي النفعي بالإيديولوجي.

و لقد دافع ابن حزم عن الحب موضوعا للدراسة والتصنيف دفاعا مستميتا مستلهما من سماحة الدين الإسلامي وسيرة الخلفاء الراشدين والصالحين الذين أحبّوا وعشقوا باعتبار أن الحب عاطفة إنسانية نبيلة: « الحب أعزّك الله أولّه هزل وآخره جدّ، دقت معانيه عن أن توصف فلا تدرك إلا بالمعاناة وليس بمنكر في الديانة ولا بمحضورة في الشريعة إذ القلوب بيد الله عز وجل وقد أحبّ من الخلفاء المهديين والأيّمة الراشدين وكثير منهم بأندلسنا عبد الرحمان ابن معاوية لدعجاء والحكم ابن هشام وعبد الرحمان ابن الحكم وشغفه بطروب أمّ عبد الله ابنه أشهر من الشمس... ومن الصالحين والفقهاء في الدهور الماضية والأزمان القديمة»[31]

---

[29] عبد الله صولة : مصنّف الحجاج والبلاغة الجديدة ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج ، إشراف حمّادي صمّود منشورات كلية الآداب منوبة ، تونس ، سنة 1999 ، ص299 .

[30] Toulmine (S) ,Les Usages de l'argumentation, Traduit de l'anglais par Philippe de Barbaretta, PUF, PP 14-15.

[31] ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ص ص 48-49 .

وهو يحتج بالديانة أي بأصول العقيدة وبالشريعة أي بأحكام الفقه الإسلامي على المذهب الظاهري، وهو لا يجد فيها نصّا يحرّم الحبّ أو يجعله مكروها في الظاهر وهنا يوظف ابن حزم الأندلسي مذهبه الظاهري في الدفاع عن الحب باعتبارها عاطفة سامية لا يداخله تجريح ولعلّه بذلك يقارع النظرة المتحجرة في الدين التي تسارع في التحريم والتجريم دونما نص صريح ظاهر للعيان.

ويعد الشعر إلى جانب النثر مظهرا من مظاهر الحجاج ومادة من مواده والانتصار للرأي. وعندما يتعرض ابن حزم إلى أنواع المحبّة يقول: «وأفضل هذه الأنواع محبة المتحابين في الله عزّ وجلّ إمّا لاجتهاد في العمل وإمّا لاتفاق في أصل النحلة والمذاهب وإمّا لفضل علم يمنحه الإنسان»[32].

يحبّذ ابن حزم هذا النوع من المحبة وهي المحبة في الله ويجعلها شرطا أساسيا للمحبة الصحيحة والعشق الصحيح ويذهب إلى أنّ العشق الصحيح يتصل بالروح والنفس: «لاستحسان روحانيّ وامتزاج نفساني»[33].

و في باب من لا يحبّ إلا مع المطاولة يدافع ابن حزم الأندلسي عن الحب الذي ينشأ بعد ملازمة طويلة للمحبوب «وهو الذي يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيق فيه مرّ الليالي فما دخل عسيرا لم يخرج يسيرا وهذا مذهبي في الحبّ»[34].

إنّ الحجج التي يعتمدها ابن حزم كثيرة ومتنوعة ولكن يمكن تصنيفها كالتالي:

اعتماد حجّة الشاهد «إنّ الله عزّ وجلّ قال للروح حين أمره أن يدخل جسد آدم وهو فخّار فهاب وجزع: أدخل كرها وأخرج كرها حدّثناه عن

[32] ابن احزم الأندلسي : طوق الحمامة ص30 .
[33] نفسه ، ص31 .
[34] نفسه ، ص56 .

شيوخنا»[35]. أمّا الحجّة الثانية منبثقة من التجربة الذاتية التي خاضها ابن حزم» وما لصق بأحشائي حب قطّ إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهرا وأخذي معه في كل جدّ وهزل وكذلك أنا في السلوّ والتوقي فما نسيت ودّا لي قطّ»[36].

ويروي ابن حزم الأندلسي وهو بصدد تأكيد نظرية الحب مع المطاولة ما وقع له بعد موت حبيبته نُعْم التي فجع فيها وهي في غضاضة الشباب وما وقع له من الحزن والألم نتيجة فقدانها فهو على حزن مقيم وجراح لم تندمل مع مرّ الأيام: «وعنّي أخبرك أنّي أحد من دهي بهذه الفادحة وتعجلت له هذه المصيبة وذلك أنّي أشدّ الناس كلفا وأعظمهم حبّا بجارية كانت لي، فيما خلا، اسمها نُعْم وكانت أمنية المتمنّى وغاية الحسن خَلقا وخُلقا وموافقة لي وكنت أبا عذرها وكنّا قد تكافئنا المودّة، ففجعتني بها الأقدار واخترمتها الليالي ومرّ النهار وصارت ثالثة التراب والأحجار وسنّي عند وفاتها دون العشرين سنة وكانت هي دوني في السن فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرّد عن ثيابي ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني... وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف وببعض جسمي العزيزة عليّ مسارعا طائعا ولا طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرا ولا أنست بسواها وعفا حبّي لها عن كل ما قبلها وحرّم ما كان بعده.»[37].

يتضح من هذه الأمثلة توظيف ابن حزم الأندلسي لكثيرمن الحجج والأمثلة في سبيل الإقناع بوجهة نظره في الحب : وهو ما يؤكد من زاوية النظر هذه، أن الحجاج كان مادّة من مواد خطابه في الحبّ على كتابة هذا وشكّل –إلى جانب المكوّن السردي والمكون الشعري– أهمّ مظاهر بلاغة الخطاب في طوق الحمامة.

[35] ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ص56 .
[36] نفسه ، ص 56 .
[37] نفسه ، ص ص 179–180 .

II - وظائف الخطاب:

على أنّ لبلاغة هذا الخطاب وظائف ذات قيمة دلالية وتداولية تتّضح في ما يلي:

1 - وظيفة تعليمية وأخلاقيّة:

وهي التعريف بماهية الحب وأسبابه وعلاماته وتأثيره في المحبين فالحب من منظور ابن حزم الأندلسي هو تلاقي الأرواح في الأزل فهو «اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع»[38] ويقدّم ابن حزم الأندلسي للقارئ المتقدّم أهم أنواع الحب دواما مع الزمن لا يبلى مع الدهر وهو الحب مع المطاولة[39].

كما يقدّمُ عرضا ضافيا شافيا عن أصول الحب وأعراضه والآفات الداخلة عليه ونبّه إلى الوظيفة الأخلاقية التي تصاحب الحب لأن الحب يحوّل الطباع ويروّض النفس ويهذّب السلوكيات « ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه وصرفه طباعه قسرا إلى طباع من يحب وربّما يكون المرء شرس الأخلاق صعب الشكيمة جموح القياد ماض العزيمة حميّ الأنف أبيّ الخسف فما هو إلا أن يتنسّم نسيم الحب فتعود الشراسة ليانا والصعوبة سهولة والمضاء كلالة والحميّة استسلاما[40]، والحب جميل وخلاق للقيم الجميلة في العاشق، إنّه رياضة روحيّة ونفسيّة في سبيل اكتساب مناقب كانت مفقودة، يزيّن للمرء ما كان يأنف منه ويسهل عليه ما كان يصعب عليه حتى يحيل الطباع المركّبة والجبلّة المخلوقة.

وهو مؤثر أخلاقيّا في العاشق الذي يسعى إلى التأثير في محبوبه ونيل رضاه بأخلاق جميلة وسلوكيات محببة.

---

[38] ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ، ص 180 .
[39] نفسه ، ص51 .
[40] نفسه ، ص79 .

2 – وظيفة وعظيّة:

وقد اتّضح لنا في «طوق الحمامة» أيضا هيمنة النزعة الوعظية لخطاب الحب فقد ابتدأ الكتاب بالوعظ وانتهى عودا على بدء بالوعظ ناهيك أن بابَيْ فضل التعفف وقبح المعصية يمثلان وحدهما خمس الكتاب ممّا يؤصل نظرية الحب عند ابن حزم الأندلسي في فضاء عربي إسلامي يؤطر الظاهرة أخلاقيا فمتى تجاوز الحب العاطفة إلى المحظور أنكر ابن حزم الأندلسي ذلك السلوك واعتبره مخالفا للشريعة ولكنّه لم يغلق باب الحب باعتباره عاطفة نبيلة مهذبة للنفوس وللقلوب.

III – دلالات الخطاب:

لقد ذهب الشكلانيون الروس منذ مطلع القرن العشرين إلى أنّ السّرد محض تقنية وجعلوا غايتهم وصف النظام الأدبي وعناصر القول باعتبار الخطاب نسيجا قُدّ من لغة ومنذ أواخر القرن المذكور اعتبر البنيانيون أن الخطاب بنية مغلقة وأن الدلالات لا شأن لها في الخطاب، إلا أن اتجاهات مناهج النقد الأدبي ما بعد البنيوية انتهت إلى أهمية الدلالة النفسية والاجتماعية للخطاب وإلى أنّ الأنساق الفكرية مرتبطة إلى حد كبير ببنية المجتمع العميقة اجتماعيّا وحضاريّا.

1 – دلالة الخطاب الاجتماعية:

يعكس الخطاب في الحب نمطا اجتماعيا متفتحا فالحب في المجتمع الأندلسي غيره في مجتمع المشرق العربي فثمّة تجاه هذه الظاهرة تسامح واعتراف هام بقيمة المرأة في الأندلس وبلد الغرب الإسلامي فقد ساهمت المرأة في تربية ابن حزم الأندلسي وتعليمه وتثقيفه « تربّيت في حجورهنّ ونشأت بين أيديهنّ ولم أعرف غيرهنّ ولا جالست الرجال إلا وأنا في حدّ الشباب ... وعلّمنني

القرآن وروّيتني كثيرا من الأشعار ودرّبتني على الخطّ»[41]. في هذا الكلام ما يدل دلالة قاطعة على أنّ المرأة الأندلسية امرأة مثقفة متنوّرة وأنّ هامش الحرية الممنوح لها كبير من قبل المجتمع الأندلسي ففسيفساء الأعراق والأجناس من عرب وبربر وروم ومسلمين ويهود، هذه الفسيفساء الاجتماعية كانت وراء تحرّر المرأة الأندلسية وإسهامها حتّى في المجالات العلمية.

2 - دلالة الخطاب السياسية:

يبدو ابن حزم الأندلسي متعصّبا لبني أميّة[42] في الحكم وفي السياسة وحتى في الحب، فقد شغل أبوه الوزارة في عهدهم وهو الآخر قد شغل وظيفة وزير في عهد ولاّة الأندلس وكان حبّه أمويا على مذهب بني أميّة في اختيار المرأة المعشوقة «وعنّي أخبرك أنّني أحببت في صباي جارية شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه وإنّي لأجد هذا في أصل تركيبي في ذلك الوقت لا تؤاتيني نفسي على سواهنّ ... وهذا العارض عرض لأبي رضي الله عنه وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه الأجل»[43].

إنّ ما من شأنه أن يدعم هذا الذوق الاتباعي في النساء هو ميل صاحب طوق الحمامة إلى الشقراوات منهنّ. ولعلّ حب ابن حزم الأندلسي للشقروات يندرج في سنّة أشمل هي السنّة الأموية في الحب والعشق. فكذلك «جماعة بني مروان -رحمهم الله- كلهم مجبولون على تفضيل الشقرة لا يختلف في ذلك منهم مختلف. وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر نزاعا إلى أمّهاتهم حتى قد صار ذلك فيهم خلقة».

---

[41] ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ص207

[42] سالم يفوت ، ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس الدار البيضاء ، المغرب ، طبعة 1 ، 1986 ، ص ص 68-69 .

[43] ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة ، ص 85 .

خـاتـمـة:

يمثل خطاب الحب عند ابن حزم الأندلسي مظهرا من مظاهر فرادة الإنسان الأندلسي المتأصّل قياميّا في مجتمعه الإسلامي المحافظ على أخلاقه وقيمه الدينية وهو في نفس الوقت مجتمع منفتح على متغيّرات الحضارة وصيرورتها فقد أعطى للمرأة هامشا كبيرا من الحرية غير مسموح به في مجتمعات المشرق العربي الإسلامي كما أعطى للحب مشروعية طعن فيها الفقهاء المتزمتون.

كما يمثل خطاب الحب في طوق الحمامة مظهرا من مظاهر الأدبية الرفيعة فقد صاغه ابن حزم الاندلسي في أسلوب غنيّ بالتمثيل القصصي، حافل بالاستعارات والمجازات والأشعار فأضفى على الحب شعرية قلّ نظيرها في غيره من مدوّنات الحب والعشق وبذلك لم يكن خطابا في الحب انعكاسا للواقع بل فيه من الفنّ والأدب الشيء الكثير.